الاشتياق لليلة حالكة

مشهد من الجسر



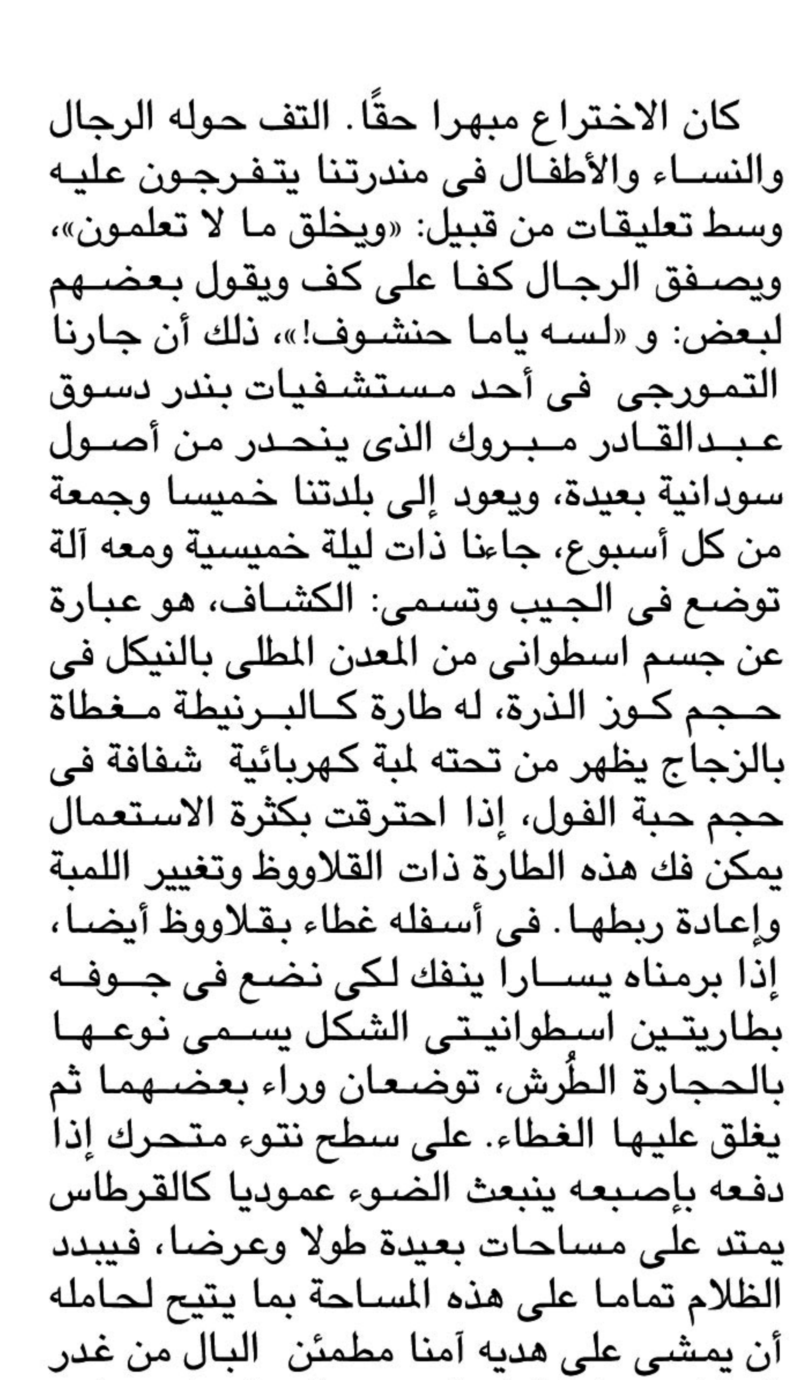
خيرى شلبى

كان الاختراع مبهرا حقًا. التف حوله الرجال والنساء والأطفال فى مندرتنا يتفرجون عليه وسط تعليقات من قبيل: «ويخلق ما لا تعلمون»، ويصفق الرجال كفا على كف ويقول بعضهم لبعض: و «لسه ياما حنشوف!»، ذلك أن جارنا التمورجى فى أحد مستشفيات بندر دسوق عبدالقادر مبروك الذى ينحدر من أصول سودانية بعيدة، ويعود إلى بلدتنا خميسا وجمعة من كل أسبوع، جاءنا ذات ليلة خميسية ومعه آلة توضع فى الجيب وتسمى: الكشاف، هو عبارة عن جسم اسطوانى من المعدن المطلى بالنيكل فى حجم كوز الذرة، له طارة كالبرنيطة مغطاة بالزجاج يظهر من تحته لمبة كهربائية شفافة فى حجم حبة الفول، إذا احترقت بكثرة الاستعمال يمكن فك هذه الطارة ذات القلاووظ وتغيير اللمبة وإعادة ربطها. فى أسفله غطاء بقلاووظ أيضا، إذا برمناه يسارا ينفك لكى نضع فى جوفه بطاريتين اسطوانيتى الشكل يسمى نوعها بالحجارة الطُرش، توضعان وراء بعضهما ثم يغلق عليها الغطاء. على سطح نتوء متحرك إذا دفعه بإصبعه ينبعث الضوء عموديا كالقرطاس يمتد على مساحات بعيدة طولا وعرضا، فيبدد الظلام تماما على هذه المساحة بما يتيح لحامله أن يمشى على هديه آمنا مطمئن البال من غدر الظلام، فإذا أزاح النتوء إلى الوراء ينطفئ الضوء. والبطاريتان هما مصدر الطاقة الكهربائية التى تضىء اللمبة، وهى تنفد بعد حين، ويتعين على مستخدمه أن يشترى بطاريتين جديدتين من محل فى بندر دسوق.

الزهو باقتناء المخترعات الحديثة كان قد استوطن دارنا ردحا طويلا من الزمان بوجود جهاز الحاكى - الجرامفون - فى دارنا موروثا عن جدى الذى كان ذات يوم يعد من كبار الملاك الأعيان، ووجود اللمبة البللورية التى تتدلى من السقف كالنجفة ويمكن سحبها إلى أسفل لتعميرها بالجاز وإشعال شريطها ثم دفعها إلى أعلى قرب السقف.

فلما وقعنا فى أزمة من العوز والفاقة بعنا الحاكى بإسطواناته للعمدة، فانتقل مركز الانبهار والإشعاع إلى داره ودواره، إلا أنه لم يهنأ بذلك طويلا، إذ فوجئت بلدتنا ذات يوم بالمعلم فرج الخياط المشهور فى البلاد المجاورة قد اشترى جهاز راديو ماركة فيليبس ببطارية كبيرة سائلة يتم شحنها كلما فرغت فى ماكينة الطحين. فتمركز الإشعاع كله فى دكان الأسطى فرج غطاس وأصبح دكانه مزدحما على الدوام ليل نهار، لا بالزبائن فحسب وهم كثار، بل بجميع شبان الناحية حيث قد سحرنا هذا الجهاز واعتبره أهلنا من علامات الساعة يعنى قيام القيامة بدليل أن الحديد قد نطق، فها هو ذا صندوق خشبى؟؟؟ يرسل الغناء والتمثيل والأخبار يجىء بها من مصر ومن جميع أنحاء العالم.. وأخيرا ظهر هذا الكشاف العجيب فى يد التمورجى عبدالقادر مبروك ليصبح محط أنظار الشباب، خاصة العياق منهم، وبالأخص أولئك الرجال الذين يحبون أن يكونوا هم وليس غيرهم أول من يقتنى مثل هذه المخترعات المبهرة للقوم.

ما لبث كشاف التمورجى عبدالقادر مبروك حتى بات أشهر شىء فى بلدتنا، ينسب إليه كل ضوء يلمع فى السماء من الشهب المتساقطة إلى النجمة أم ذيل، فكثيرا ما كان عبد القادر مبروك فى عز الليل الخميسى علي إحدى المصاطب مع شيخ الخفر أو بعض السهيرة حيث يروح يسلط كشافه على السماء فى قرطاس ضوء عمودى يحلق فى السماء ويراه الناس فى شرق وغرب وشمال وجنوب البلدة حتى اختلطت عليهم الأضواء. ثم إن العمدة سرعان ما فطن إلى أن لمثل هذا الكشاف الكهربى ضرورة أمنية، يستطيع هو أو شيخ خفرائه أن يسلط عموده الضوئى على حقول الذرة والقصب فيجوس الضوء خلل الأعواد يكشف فيه عن قطاع الطرق والمجرمين واللصوص، وكذلك فى حوارى البلدة المظلمة وخرائبها الكثيرة ومقابرها حيث يقبع الفسقة الفجرة، سيما وأن حوادث فش أقفال الدكاكين وسرقة المحاصيل وخطف البهائم كانت منتشرة فى البلدة، وبخاصة فى النصف الأخير من الشهور القمرية، حيث تغطس البلدة فى أعماق بئر سحيق من ظلام دامس لا يجرؤ على اختراقه إلا ذو قلب ميت. فلما فكر العمدة فى شراء كشاف مثله، وعلم أن ثمنه جنيه كامل يشتغل به عامل زراعى فى الحقول شهرا بأكمله، نزع الفكرة من رأسه ثم ما لبث حتى امتدح الظلام باعتباره لباس الستر الذى أراده الله سبحانه لعباده من بنى الإنسان - الستر حلو برضه يا اخوانا ! فى نفس الوقت كثيرا ما كان ينتظر قدوم... عبدالقادر عصر الخميس لقضاء إجازته الأسبوعية فى البلد، فيستلف منه الكشاف لمدة ساعة أو ساعتين نظير قرش أو قرش ونصف مساهمة فى ثمن البطارية، لكن عبدالقادر كان يقول له: «خلى عنك يا عمدة!» ولا يأخذ شيئا. وفى ليلة إستدعاه بصنعة لطافة، بروح الإخوة والصداقة واضعا فى اعتباره أن عبدالقادر مبروك وإن كان من مواطنيه فإنه تمورجى، يعنى يجيد القراءة والكتابة، يعنى أنه موظف حكومى محترم ولا يليق أن يعامله معاملة الفلاحين الجهلة والأجراء التافهين، ثم إن عبدالقادر يستطيع الرد على العمدة وإفحامه إذا هذا تحداه، بل يستطيع مقابلة المسئولين فى البندر وتقديم ما يشاء من الشكوى، وسوف يستمعون إليه باحترام شديد، على الأقل لأنه تجىء من ورائه خدمات يحتاجونه فيها كضرب الحقن والتغيير على الجروح والإسعاف بأى شكل. استدعاه العمدة بصيغة عزومة على كوب من الشاى على مصطبة الدوار الداخلة فى حديقته الخلفية. بعد أن شربا ثلاثة أدوار من الشاى طلب العمدة من عبدالقادر أن يعيره الكشاف لمدة خمس دقائق فقط، ماشى يا عمدة، لكنه وهو يسحبه من سيالته ويعطيه له ضحك ضحكة زنجية مصلصلة برقت منها عيناه القويتان الناصعتان فى بشرته السوداء، ضحكة متقطعة يدارى بها حرجه ويحاول إكمال عبارة: «بس وحياة والدك البطارية قربت تخلص!



يعنى من غير مؤاخذة ما تفتحوش عمال على بطال!»

صاح فيه العمدة باحتجاج اصطناعى لطيف: «ذلنا بقى! إياك فاكر إن ربنا حوجنا ليك! أنا على فكرة أقدر اشترى عشرة عشرين من كشافك ده بس خايف من الحرمانية!»

ثم أعطاه ظهره ومضى ممسكا بالكشاف متوغلا فى حديقته المترامية الأطراف على مساحات بعيدة يلفها ظلام مركب شديد الكثافة حيث تبدو الأشجار العتيقة الكثيرة المتجاورة كتلال من ظلال تمجد كثلج المحيط المتجمد الذى نذاكره فى دروس الجغرافيا. تجلجل ضحكة عبدالقادر مبروك وهو جالس وحده فوق المصطبة المختفية داخل السور من خلف الدوار. إنه يعرف أن العمدة ليس يريد أن يقتفى أثر لصوص أو مجرمين أرادوا به أو بحديقته شرا، لسبب بسيط هو أن جميع اللصوص والمجرمين من أصدقائه الخلص وبفضله لا يتم القبض عليهم مطلقا.. إنما العمدة قد جُن فى هذه السن الحرجة، فبرغم أن أحفاده تزوجوا وأنجبوا فإنه قل عقله ومال لمياصة البنت السنكوحة اللى اسمها سبيلة، المشهورة بالسلوك البطال، رأته سهلا فلعبت بدماغه فمال واندلق فتأبت عليه مع أنها رضيت لطوب الأرض، وهو من حرقته يريد أن يقتفى أثرها فى عز الليل، حيث أكدت الشائعات أن البنت تقابل عشاقها فى عز الليل تحت أشجار حديقته الكثيفة المخيفة، إنه يتحرق شوقا لأن يمسكها بيديه متلبسة، لا ليقبض عليها وعشيقها ويبعث بهما إلى قسم شرطة البندر لكى تعرضهما على النيابة بتهمة الزنى، بل ليكسر عينها فحسب، فلعلها تستسلم له عندئذ تعاظمت ضحكات عبدالقادر حتى كتمها فى صدره خشية إيقاظ النيام، فصار جسده يهتز وينتفض من فرط السخرية من جنون العمدة المغفل، وكانت رعشة الخوف تهجس فى صدره بتوقعات مخيفة: آه لو علم العمدة أن هذه الشائعات صحيحة مائة فى المائة، آه لو علم العمدة أنه هو - عبدالقادر مبروك - بطل هذه الشائعات الأوحد! أنه هو الوحيد الذى نال من سبيلة ما لم ينله أحد، وأنه يحرص على المجىء كل خميس من أجلها، وأنه الليلة أنهى مهمته معها فى حديقة العمدة فى عشة مسقوفة يبيت فيها المعيز والخرفان أيام كان عند العمدة معيز وخرفان، وأن ذلك تم قبل مجيئه إلى العمدة بدقائق حتى إنه لم يجد وقتا ليستحم.

عصر اليوم التالى - الجمعة - كان عبدالقادر يجلس مع أبى فى مندرتنا بدعوة من أبى الذى قال له إنه يريد أن يكلمه على رواقة فى موضوع مهم، مع أنهما سيلتقيان فجرا على السكة الزراعية فى طريقهما إلى محطة القطار على مبعدة ستة كيلومترات من بلدتنا، ليركب عبدالقادر إلى دسوق، ويركب أبى إلى كفر الشيخ، وحينما راح عبدالقادر يحكى لأبى حكايته مع العمدة والبنت سبيلة - دون أن يفطن إلى وجودى - راح أبى يضحك بعمق دون صوت وهو لا يعنى يسلق عبدالقادر بنظرات ذات معنى. وكنت أعرف السبب وراء هذه النظرات، فلقد رأيت ناسا كثيرين ينفردون بأبى فى المندرة ويشتكون له مر الشكوى من أفاعيل عبدالقادر وكشافه، شىء يقشعر منه بدنى: إنه فى ليلتين من كل أسبوع يقضى النصف الأخير من الليل متجولا فى الظلام فى أماكن معينة لا تخطر على البال، فيسلط كشافه فجأة على عاشقين يختلسان وصلا فى أطلال قديمة أو بين الجناين وفى العشش المبنية فى الحقول القريبة، قد يعثر على بهائم مسروقة لتوها يتم التفاوض بشأنها بين السارقين، أو على لص بائس يتسلل جنب الحيطان.. عندئذ يدخل شريكا فى الصفقة، لابد أن ينوبه من الحب جانب مقابل كتمان الفضيحة، وهو لا يعتق من يقع تحت كشافه الفاضح، يضاجع فى الحال، يأخذ حقه من السرقة ناشفاً، أى نقوداً.. وفى كل شكوى كان أبى يعلق بأنه لا يستطيع أن يفاتحه فى مثل هذه الأفاعيل، لا بصراحة ولا بالموروب. إلا أننى كنت أعرف لماذا دعاه أبى هذه الليلة إلى الشاى فى المندرة: لقد اقتنع أبى أنه أحوج الناس فى بلدتنا إلى مثل هذا الكشاف، فأبى تاجر عطارة وأعشاب طبية، يفرش بها فى أسواق الناحية، يسافر خمسة أيام فى الأسبوع، كل يوم فى سوق بلدة مجاورة، مما يحتم عليه الاستيقاظ قبل أذان الفجر بقليل، يذهب من فوره إلى المسجد يصلى الفجر جماعة، يعود فيجد أمى قد جهزت له خرج البضاعة والركوبة وكيساً به بعض أطعمة جافة، يركب متوكلاً على الله هو محتاج للكشاف يضىء به الطريق إلى المسجد حتى لا يدوس فوق الكلاب النائمة فى الحوارى الضيقة الدامسة ولا يتعثر فى الحفر والدروب المليئة بالفخاخ، ثم إن الظلام كثيراً ما يبقى يضبب السماء والطرقات الزراعية بالشبورة، بل إن معظم هجمات قطاع الطرق على التجار المسافرين تتم فى مثل هذه اللحظات الساكنة الهاجعة، وهو- أبى- محتاج إلى الكشاف ليسلطه فى عينى من يداهمه فى الطريق إلى أن يستعد له بالمواجهة المسلحة، لكل هذا قال أبى لنفسه بصوت سمعناه «ملعون أبو الجنيه اللى يندفع فى الكشاف ده! مائة قرش ليست خسارة فيه!» وهكذا فتح حصالة خاصة جعل يدخر فيها كل يوم ما تيسر من الفكة حتى اكتمل الجنيه، وها هو ذا قد استدعى عبدالقادر ليعطيه الجنيه ويكلفه بشراء كشاف له مثل كشافه بالضبط بنفس الحجم.

عبدالقادر مبروك لا يستطيع التلاعب بأبى لأننا جيران الحيط فى الحيط، وهو طول عمره يخشى بأس أبى ويعمل له حساباً. فى مساء الخميس التالى طرق باب المندرة ودخل قدم لأبى الكشاف فى علبة من الورق المقوى. فى الحال حضرت العائلة برمتها، جاءوا يتفرجون، لم يتنازل أى فرد منهم عن حقه فى الإمساك بالكشاف وإضاءته وإطفائه حتى صرخ فيهم عبدالقادر «كفاية حتخلصوا البطارية» فانتزعه أبى ودسه فى دولاب الحائط خلف ظهره.. حينذاك كانت أفاعيل عبدالقادر قد فضحتها روائحها وبات الناس يتداولونها كحقائق مؤكدة، لكن أبى الذى سئم من الشائعات ومن الشكاوى كان قد أصيب بإحباط شديد من فرحة ما تمت. ففى فجر ذلك اليوم بكر أبى فى النزول شاهراً الكشاف فى يده، فإذا به يكتشف أن القمر ساطع فى السماء يغمر الأرض بنوره، كنا إذا فى بداية الشهر الهجرى فيالها من مصادفة سخيفة كل ليلة ينزل أبى بالكشاف فلا يجد ثمة من داع له على الإطلاق حتى داخل مراحيض المسجد يطولها القمر من فوق وتحت أبوابها القصيرة من شدة غيظه كان أبى يصيح- وحده أو بين أصحابه فى المندرة- بحرقة حقيقية تفجر الضحكات فى الصدور «يعنى القمر متشملل قوى الشهر ده طب يا أخى- يقصد القمر- حط فى عينك حصوة ملح وجاملنى بليلة سودة أفش فيها غليلى وأتمتع بنور الكشاف اللى دفعت فيه جنيه بحاله!» ولقد جاءت الليلة السوداء بالفعل، أول ليلة غاب فيها القمر، كانت شكاوى الناس قد كثرت وقويت بانضمام العمدة وقيامه بإبلاغ النيابة- نيابة عن أهل بلدته- أن فى البلدة كشافاً يتجسس على خلق الله ليفضحهم ثم يبتزهم وكان عبدالقادر قد سافر إلى بندر دسوق صباح ذلك السبت الذى كان ليلة بلا قمر ليلتها نزل أبى ملهوفا قبل أن يتبدد الظلام، قفزت من الفراش وسرت فى أعقابه. الطريق إلى المسجد فركة كعب، لكن أبى أراد أن يستمتع بالظلام أطول مسافة ممكنة، آثر الذهاب إلى المسجد عبر طريق داير الناحية، كأنه يريد أن يأخذ حقه كله من ضوء الكشاف فى هذه الليلة، كان كأنه الطفل لا أنا. ثم إذا بالفرجة الكبرى تدهمنا على رأس الطريق الفاصل بين البلدة والغيطان: نصف دائرة من الأشباح سدت علينا الطريق، حاصرونا، قال الضابط: «أهلا أهلا! جيت برجليك يا حلو! رايح تبتز مين الساعة دى يا ترى؟!» قبضوا على أبى، وعدت إلى الدار أصرخ متخبطا فى الظلام.

لا أدرى كم من الشهور والسنوات أمضيناها فى نكد وشحططة فى المحاكم وأقسام الشرطة كم صرفنا من رشاوٍ، ناهيك عن العطل ووقف الحال، لكننى أصبحت أنزعج بل أرتعد إذا أضئ النور فجأة أو انطفأ لأى سبب من الأسباب ■